دير القديس أنبا مقار

برية شيهيت

مقالتان في الصوم الكبير

١. صوم جماعي وتوبة جماعية

٢. لا تقسُّوا قلوبكم

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

مقالتان في الصوم الكبير

١. صوم جماعي وتوبة جماعية

٢. لا تقسُّوا قلوبكم

الأب متى المسكين

كتاب: مقالتان في الصوم الكبير:
١. صوم جماعي وتوبة جماعية (فبراير ١٩٧٢).
٢. لا تقسوا قلوبكم (مارس ١٩٨١).
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى: مارس ٢٠٠٢، الطبعة الثانية: أبريل ٢٠٠٥.
الطبعة الثالثة: يناير ٢٠٠٧.
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون.
ص.ب ٢٧٨٠ – القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٢/٥١٠١
رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-240-116-9

صوم جماعي وتوبة جماعية

◆✧✞✧◆

"احنوا رؤوسكم للرب":

"تاس كيفالاس إيمون توكريو اكليناتيه"(*):

τὰς κεφαλὰς ὑμῶν τῷ κυρίῳ κλίνατε.

بهذه الجملة المهيبة يهتف الشماس وهو واقف بجوار المذبح، يدعو الشعب وكل الإكليروس أن **يطأطئوا رؤوسهم** لله قبل التقدُّم للتناول، قبل أن يصرخ الكاهن قائلاً: "القدسات للقديسين".

ولكن لشدة الأسف لا يستجيب الشعب أو الإكليروس لهذا النداء كما ينبغي. فبعضهم يسمع النداء ولا ينحني، وبعضهم يسمعه فيسجد، وكلاهما يخطئ السمع والفهم والاستجابة.

إن الدعوة هنا إلى إحناء الرأس للرب، لأنها لحظة توبة واعتراف بالخطايا، حتى يؤهَّل الشعب لقبول صلاة الحلّ من فم الكاهن.

فالكاهن في هذه اللحظات، والشعب كله منحنٍ، يعترف عن الشعب ومع الشعب لدى الله: "اللهم يا حامل خطيَّة العالم، ابدأ بقبول توبة عبيدك من أيديهم نوراً للمعرفة وغفراناً للخطايا... اللهم

(*) هذا النداء عينه يقوله الشماس في ختام صلاة رفع البخور لتقبُّل صلاة الحلّ من الكاهن، حيث يخطئ بعض الناس ويستجيبون للنداء بالسجود في حين أن المطلوب هو إحناء الرأس فقط.

حاللنا وحالل كل شعبك من كل خطية، ومن كل لعنة، ومن كل جحود، ومن كل يمين كاذب...".

أما لماذا يكون هنا إحناء رأس وليس سجوداً؟ فلأن الدعوة هنا ليست للعبادة وتكريم الله؛ بل الدعوة إلى الاعتراف بالخطايا في انسحاق وخوف وتذلُّل. فالشماس بهذا النداء المحدَّد لإحناء الرأس إنما يقصد أن يُذكِّرنا بموقف معين هو موقف العشَّار الذي ذكره المسيح: «أما العشار **فوقف** من بعيد، **لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء**، بل قرع على صدره قائلاً: اللهم ارحمني أنا الخاطئ.» (لو ١٨:١٣)

إذن، فالذي يحني رأسنا في هذه اللحظات الرهيبة ـ قبل التناول ـ هي الخطية. فالمسألة ليست طقساً وحسب، بل حزن وتوجُّع وخجل مع الإحساس بالهمِّ الثقيل من جراء تذكُّرنا لخطايانا، هذا هو الذي يجعل رأسنا تسقط على صدرنا من تلقاء نفسها. هذا الندم مع الحزن الشديد الذي يجعل الإنسان غير قادر بالمرة أن يرفع رأسه نحو السماء، هو موقف يتناسب مع الحضرة الإلهية وأمام الجسد والدم، إنه موقف مطلوب في هذه اللحظات الحرجة.

الفرِّيسي في مَثَل المسيح رفع رأسه نحو السماء معتمداً على صومه وصدقته وطهارته وعدله: «اللهم أنا أشكرك أني لستُ مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة... أصوم مرتين في الأسبوع، وأُعشِّر كل ما أقتنيه.» (لو ١٨:١١و١٢)

ولكن للأسف فبالرغم من كل هذا فإن الله لم يرفع وجه الفرِّيسي،

فالمسيح يقول: «إن هذا (العشار) نزل إلى بيته مُبرَّراً دون ذاك (الفرِّيسي).» (لو ١٨:١٤)

وبمعنى أوضح، فإن الصلاة والصوم والصدقة وطهارة الجسد مع العدل والتعفُّف كل هذه لا تستطيع وحدها بدون توبة أن ترفع وجه الإنسان أمام الله، لأنه بعد كل هذه الفضائل وأكثر منها يظل الإنسان بلا قدرة ولا استطاعة ولا حق أن يرفع رأسه أمام الله. الخطية تمنع الإنسان أن يرفع رأسه بتاتاً. فالذي برَّر العشَّار هو أنه أحنى رأسه إحساساً منه بأنه غير مستحق أن يرفع عينيه نحو السماء، وعلى الوجه الأصح فإنه لم يستطع قط أن يرفع رأسه لأن خطيئته كانت ماثلة أمامه في ذلك الحين.

إن توبة العشَّار واعترافه بالخطيئة مع انسحاق نفسه وانكسار قلبه الذي ظهر في إحناء رأسه وقرع صدره أمام الله، جعلت صلواته وصدقاته وأصوامه مقبولة لدى الله. ولذلك فقد برَّر الله العشَّار لَمَّا دان العشار نفسه.

حينما يُنادي الشماس بإحناء الرأس، فإنه يدعو إلى دينونة النفس حتى تؤهَّل لتبرير الله بواسطة الجسد والدم.

الكنيسة في هذه اللحظات تقف كلها تائبة منحنية الرأس تطلب الغفران، الشعب كله يكون مدعوًّا بهذا النداء أن يسترجع في حياته موقف العشار، لذلك يُقال إن الكنيسة جماعة تائبين.

الصوم والتوبة:

الكاهن يهتم أن يسأل المتناولين في أيام الصوم عن صومهم ولا

يهتم أن يسألهم عن توبتهم. الأمر هنا يحتاج إلى مراجعة، فالله لم يهتم إطلاقاً بصوم الفرّيسي مع كل صدقاته وتطهيراته لأنه كان خالياً من الانسحاق والتوبة والاعتراف بالخطيئة. في حين أن التوبة برّرت العشّار في نظر الله وأهّلته أن يكون صاحب صوم مقبول وصلاة مسموعة!!

فالتوبة وحدها هي التي تجعل الصوم صوماً، وبدونها لا يُحسب الصوم شيئاً. إذن، فالصوم بدون توبة لا يبرِّر ولا يؤهِّل للتناول.

طقس التوبة والتناول من الجسد والدم:

الكنيسة جعلت من إحناء الرأس طقساً للتوبة، إنها مهارة من الكنيسة وحذق من الروح القدس أن يُشكِّل من الطقس دعوة لتوبة جماعية يُنادَى بها في كل صلاة كشرط أساسي للتناول من الجسد والدم. التوبة الجماعية هي أقدر الوسائط جميعاً في توحيد الجماعة تحت تأثير انسحاق الروح وانكسار القلب وقرع الصدر. الشعور بالخطيئة يوحِّد الجماعة، لأن الكل من جهة الخطيئة واحدٌ ومتساوون: «أغلق على الجميع معاً في العصيان، لكي يرحم الجميع.» (رو ١١:٣٢)

إن نداء الشماس للشعب وكل الإكليروس بإحناء الرأس والوقوف موقف العشّار قبل التناول مباشرة، هو في الحقيقة دعوة للوحدة من تحت تأثير واحد بالشعور بالخطيئة. الجماعة المتحدة هنا بشعور الندم والتوبة تؤهَّل لكي تشترك في الجسد الواحد والدم الواحد للتبرير، وهنا الجماعة كلها تنزل إلى بيوتها مبرَّرة.

الكنيسة هنا تبنَّت موقف العشّار بفضل الطقس الذي جمع القلوب معاً ونبهها لتوبة واحدة في وقت واحد. والروح القدس في هذه اللحظات يجعل من جماعة الخطاة التائبين جماعة قديسين، ومن القرابين قُدساتٍ للقديسين.

يا ما أعجب الطقس! ويا ما أعجب الروح القدس في الكنيسة! إنه يُتعجَّب منه حقًّا! ولكن هل من مزيد من المعرفة؟ وهل من مزيد من توجيه للشعب حتى يعرف كيف يشرب الروح القدس؟ وكيف يرتوي من نعمة الله؟ وكيف يتوب ويتوحَّد معاً تحت شعور واحد بالندم؟؟

أَعَلِمتُم، يا أَحبَّة، كيف ومتى يصرخ الكاهن: "القدسات للقديسين"؟ أو كيف يصير الشعب بالجملة جماعة خطاة منسحقين منحنين من جراء انكسار القلب تحت وطأة الشعور بالخطية؟ ثم كيف يرفع الروح القدس وجه الكنيسة مرة واحدة عندما يقبل الشعب جميعاً التبرير من الله كاستجابة لانسحاقهم وانحناء رؤوسهم وقرع صدورهم حسب قول وصدق الكتاب: «إلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي» (إش ٦٦:٢)؟ فحينما يقول الكاهن: "القدسات للقديسين"، يعني أن الله قَبِلَ توبتهم ورفع وجههم وأكمل تبريرهم بسبب اعترافهم، وصاروا قديسين بفعل الغفران ومستحقين للجسد بفعل التبرير.

الشماس يشهد لتوبة الكاهن:

ولكن قبل أن يصرخ الكاهن [illegible]

من استحقاق الشعب التائب، يصرخ أيضاً الشماس بدوره مخاطباً الكاهن ومُشجِّعاً إيَّاه، بعد أن يكون قد اعترف لتوِّه بخطاياه أمام الله بانسحاق كثير وحزن مع تذلُّل عندما يقول: "اذكر، يا رب، ضعفي أنا أيضاً واغفر خطاياي الكثيرة، وحيث كثر الإثم فلتكثر هناك نعمتك. ومن أجل خطاياي خاصة ونجاسات قلبي، لا تمنع شعبك نعمة روحك القدوس". فيرد عليه الشماس في الحال: "خلصتَ حقاً"!!

عجيب طقس الكنيسة القبطية، فإنه حينما يضع الشعب تحت دعوة الإنحناء وقرع الصدر ونداء التوبة لا يستثني الكاهن. فالكاهن في القداس القبطي خاطئ وتائب عن نفسه ومعترف عن خطايا الشعب ومُمثِّل لتوبتهم. وحصول التبرير لا ينسى أيضاً نصيب الكاهن، إذ قد صار بالانسحاق والتوبة قديساً ونائباً عن قديسين، وأنه لمن روائع القدَّاس القبطي أن يخاطب الشماس الكاهن معلناً له الخلاص!! وبالنهاية نجد أن القدَّاس يلهمنا روح التوبة الجماعية كشرط مُسْبق للخلاص والتبرير بجسد ودم المسيح.

القدَّاس وروح التوبة الجماعية:

واضح، إذن، أن القداس يعطينا إلهاماً واضحاً عن قيمة التوبة الجماعية والاعتراف مع الانسحاق أمام الله كشرط مُسْبق لحلول الروح القدس على القرابين وعلى الشعب والكاهن معاً: "ليحلَّ روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة"، حتى تصير القدسات للقديسين.

القدَّاس أبقى لنا الصورة الكاملة عن كيفية التوبة الجماعية وضرورتها كما يطلبها الروح القدس من الكنيسة، بكل دقائقها وترتيبها وشكلها ونتائجها الحتمية. أما المضمون والممارسة العملية والتطبيق والحصول على النتائج الفعلية فقد ظلت كلها متعطلة تماماً على مستوى الجماعة، لا ينتبه لها إلاَّ الأفراد وأفراد قليلون. الهيكل يشهد بذلك، فالمتناولون دائماً لا يزيدون عن واحد في المائة أو ربما أقل، مع أن الروح يدعو الجميع بلا استثناء للأكل من الجسد والشُّرب من الكأس لأنها دعوة حياة، والله لا يدعو للحياة بشحٍّ أو باستثناء أحد؛ بل الكل مدعوون للخلاص: "خذوا كلوا منه **كلكم**... خذوا اشربوا منها **كلكم**" (القدَّاس الإلهي)!!

والمدعوون للخلاص مدعوون مُسبقاً للتوبة، ثلاث مرات ينادي الشماس في القداس حسب الأصول الكنسية المضبوطة، داعياً الشعب والإكليروس للاعتراف بالخطيئة وإحناء الرأس لأخذ الحلّ والبركة والتطهير: **الأولى** بعد رفع البخور في باكر وعشية، **والثانية** في بداية قدَّاس الموعوظين، **والثالثة** قبل التناول مباشرة.

الأولى: لأخذ الحلّ، إما للاستحقاق لبدء أعمال اليوم بطهارة وبر في رفع بخور باكر، وإما للاستحقاق للنوم بطهارة وبر في رفع بخور عشية.

والثانية: في بداية قدَّاس الموعوظين لأخذ الحلّ لاستحقاق سماع الإنجيل المقدس بطهارة وبر، حتى تسكن كلمة الحياة فينا.

والثالثة: قبل التناول، لاستحقاق الاشتراك في جسد المسيح ودمه بطهارة وبر مع جميع المتناولين كجسد واحد.

التوبة في القداس توبة جماعية، توبة شعب، توبة كنيسة بأكملها بإكليروسها ذي الطغمات (الرُّتب) السبعة، لأن الكل مدعو للاشتراك في جسد واحد ودم واحد. الكل مدعو أن يصير جسماً واحداً وروحاً واحداً. لذلك تحتَّم أن تكون التوبة مشتركة: الكبير والصغير معاً، الطفل والشيخ، الكاهن والقيِّم، الأسقف نموذج يُحتذى. المسيح في غسله أرجل تلاميذه أشار إلى التوبة إشارة سرِّية، فالغسل عموماً هو غسل خطايا: «اغسلني فأبيضّ أكثر من الثلج» (مز ٥١:٧). الغسل في أصوله الأولى معمودية، المعمودية تطهير كامل من الخطايا؛ بل هي بمثابة خلع جسم الخطية نفسه ولِبْس إنسان البر، إنسان الروح.

ولكن لأن المعمودية لا تُعاد، إذ هي ولادة سماوية، والولادة لا تتكرَّر؛ لذلك اكتفى المسيح بغسل أرجل تلاميذه قبل التناول من جسده المقدَّس ودمه الطاهر.

هنا غسل الأرجل بمثابة إعادة تطهير الأعضاء التي اتَّسخت، كناية عن رفع أثر الخطايا التي استُحدثت بعد المعمودية فقط، والكلام على ذلك واضح من موقف بطرس الرسول، إذ لَمَّا امتنع بطرس عن غسل رجليه قائلاً: «لن تغسل رجليَّ أبداً»، أنذره المسيح أنه إذا لم يغسل له رجليه فلن يكون له نصيب معه، أي سيُمنع من الاشتراك في سر الاتحاد بجسده ودمه، إذ تكون خطيته ما زالت عليه: «إن كنتُ لا أغسلك فليس لك معي نصيب» (يو ١٣:٨). الغسل هنا بلا شكّ عمل

جوهري إلى أقصى حد، إذ يختص باستحقاق شركة الحياة مع المسيح، وهو بلا شك عمل سرِّي خالص. فغسل الرجلين في حد ذاته لا يمكن ولا يعقل أن يؤهِّل صاحبه إلى نوال نصيب مع المسيح. إذن، فهو عمل سرِّي، إجراء يتم في الظاهر على صورة مبسَّطة للغاية، غسل رجلين، وفي حقيقته يكمل استحقاق حياة أبدية، شركة في جسد ودم المسيح للاتحاد به ونوال نصيب دائم معه. الغسل هنا ينصبُّ بلا شكّ على الخطيئة ورفع آثارها المستجدة بعد المعمودية، لأن بطرس لَمَّا تمادَى بعد ذلك في طلب غسل يديه ورأسه أيضاً، وليس رجليه فقط بعد أن أزعجه إنذار المسيح، أجابه المسيح: «الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلاّ إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله. وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم» (يو ١٣:١٠). هنا كلمة المسيح «**الذي قد اغتسل** ليس له حاجة إلاّ إلى غسل رجليه»، يشير إلى غسل المعمودية، أي أن الذي اعتمد ليس له حاجة ـ عند التناول ـ إلاّ إلى غسل رجليه. وغسل الرجلين هنا هو سر إضافة تطهير لاحق على تطهير المعمودية السابق، أي غسل الخطايا المستجدة غسلاً سرِّياً بيدي الرب.

الكنيسة تذكِّرنا بغسل الأرجل حينما تأمر المتناولين بخلع أحذيتهم قبل الدخول إلى الهيكل. المسيح يباشر تطهيرنا في هذه اللحظات بغسلنا خفياً وسراً من خطايانا التي نعترف بها ونندم ونتوب عنها. وكان من ضمن الطقوس الأساسية في الكنيسة القبطية، غسل الكاهن لرجليه قبل دخول الهيكل بواسطة مرحضة نحاس كانت توضع على عتبة باب الهيكل الجانبي، ولكن هذا الطقس سقط من ترتيب الكنيسة

بسبب الإهمال. أما غسل الكاهن لرجليه قبل بدء القداس فهو واضح جداً أنه جزء مكمِّل لسرِّ الإفخارستيا بحسب الترتيب الذي باشره الرب بنفسه. وغسل الكاهن لرجليه يتضمن سر تطهير داخلي بعمل تواضع المسيح الخفي يؤهِّل للاشتراك في تقديم الذبيحة. وبهذا نجد أن الكاهن كان يباشر فعل توبة واغتسال وتطهير علني أمام الشعب!

وهكذا نجد أن روح القداس يقوم على توبة جماعية وانسحاق وتذلُّل واعتراف بالخطيئة يكون فيها الكاهن كمتقدِّم ونموذج صادق لكل الشعب، وإلاَّ لا يتم الحصول على شركة ونصيب مع المسيح.

روح القداس وروح العصر:

لقد تغلَّب روح العصر على روح القداس، وروح العصر روح فردية استقلالية غير نادمة على الخطيئة وغير منسحقة على وجه العموم. الإنسان الآن لا يشعر بأي التزام جماعي في أي شيء، لا في توبة ولا في شركة جسد الرب ودمه. الإنسان الحار بالروح يخشى في الكنيسة أن يقرع صدره أو يظهر بروح انكسار وتوبة وندم، لأن ذلك يصبح شيئاً غريباً ومستغرباً. المتقدِّم للتناول يتقدَّم إلى الجسد والدم بصفة شخصية مفردة حُرَّة من الجماعة، وكأن الأكل من الجسد والدم موضوع شخصي يأخذه الإنسان لخلاصه الخاص دون أي ارتباط بأي إنسان آخر. لقد فقدت الكنيسة أعز وأثمن صفاتها الروحية، وهي كونها جماعة متَّحدة وجسماً واحداً. وفَقَدَ القداس أعز وأثمن مفاعيله، وهو كونه سر توبة جماعية، وسر اغتسال جماعي، وسر شركة جماعية في جسد واحد ودم واحد؛ حيث عمل الجسد والدم

الأساسي هو توحيد الجماعة لتصير جسداً واحداً. الكنيسة صارت مجرد موضع راحة نفسية لبعض الأفراد، والقداس انحصر في دائرة الخلاص الفردي.

إن فقدان هذا العنصر الجماعي من الكنيسة أو من القداس، وهو فقدان لمضمون الشركة في جسد المسيح، قد ضيَّع علينا كل الصفات والمميزات الروحية التي تلازم الجماعة: كالنمو الجماعي، والحب الجماعي، والحرارة الجماعية، والكرازة الجماعية، والصلاة الجماعية، كما من قلب واحد، تلك التي كانت أعظم مميزات الكنيسة الأولى. وهذا بالتالي عاد بأعظم الضرر والخسارة على روح المجتمع المسيحي والعالم كله.

الصوم واستعادة روح التوبة الجماعية في الكنيسة:

الكنيسة تنتظر الآن نهضتها بفارغ الصبر، ولكن نهضة الكنيسة يستحيل أن يفتعلها أفراد. قد تبدأ حركة النهضة في الكنيسة بانتباه مُبكِّر لبعض الأفراد، ولكن النهضة على وجه العموم يلزم أن تكون حركة جماعية. الروح القدس إذا نبَّه فرداً واحداً أو عدة أفراد في الكنيسة، فهذا يكون للتبكيت والتوبيخ فقط؛ ولكن إذا نبَّه جماعة أو عدة جماعات، فهذا معناه أن روح بعث وتجديد قد سَرَى في الكنيسة لبدء عصر نهضة واستنارة.

الروح القدس طيب ووديع جداً، ويمكن أن يُستدعى ليعمل في الجماعة، شريطة أن تكون الجماعة مجتمعة بنفس واحدة وروح واحدة تحت تبكيت الضمير والندم وطلب التوبة والاستغفار عن كل خطايا

الكنيسة والعالم.

إن فرصة الصوم المقدس الذي سنبدأه هذا الشهر ونحن على أعتاب حرب، تلزمنا أن نتخذ قراراً حاسماً في الموضوع، فالخطر يتعدَّى الخسارات المادية. إن تراثنا الفكري كله، سواء الاجتماعي أو الخُلقي أو الروحي أو اللاهوتي، مُعرَّضٌ لهزَّات عنيفة قد تقلبه قلباً. فلننتبه جداً يا إخوة، ونأخذ بكل جدّ واهتمام معنى الحرب وإمكانية استمرارها سنين عديدة، وما تُخلِّفه من انقلابات وتغييرات جذرية تشمل كل ميراثنا التقليدي.

قد تكون التوبة الفردية عملاً شخصياً يتوقف على رغبة الإنسان ومزاجه واستعداده ومثابرته، ولكن التوبة الجماعية فرض والتزام على الكنيسة بالنسبة للوطن والعالم. الكنيسة، كجماعة، مسئولة مسئولية مباشرة عن الوطن وعن العالم. الكنيسة موضوعة في العالم لتفتديه.

الفرد يصوم عن نفسه، بالجهد قد يصوم إنسان عن آخر؛ ولكن الكنيسة عليها أن تصوم من أجل العالم. الصوم والصلاة قدَّمه كل الشعب في نينوى بتوبة صادقة وانسحاق، فنجت نينوى. سدوم وعمورة لم تصلِّيا، ولم تصوما، ولم يوجد فيهما مَن يصلِّي أو يتوب؛ فهلكتا واحترقتا بكل مَن فيهما!!

الحاجة في هذه الأيام إلى **صوم جماعي وتوبة جماعية** لتنجو مصر ولينجو العالم مما ينتظره!

لا تقسُّوا قلوبكم

الحياة مع الله، إما تُحسب حياة حب، أو تُحسب حياة عداوة، فليست شيئاً وسطاً. أما حياة العداوة له، فهي تنحصر في الاهتمام بالجسد فوق الاهتمام بالروح، حيث يُقرِّر بولس الرسول بكل صراحة ووضوح وحزم أن «**اهتمام الجسد هو عداوة لله**» (رو ٨: ٧). وهكذا قد يصل الجسد ـ أو بمعنى آخر الذات البشرية ـ بجموحها نحو العالم إلى الدرجة التي تصبح فيها الذات والجسد معاً غريمين؛ بل خائنين لله.

فإذا تيقَّنا أن الحياة حسب الجسد بهذه الصورة مصيرها حتماً هو الموت بلا رجاء، أي بلا حياة أبدية، حسب قول الكتاب: «**لأن اهتمام الجسد هو موت**» (رو ٨: ٦)، أو كما يقول في موضع آخر: «**إن عشتم حسب الجسد فستموتون**» (رو ٨: ١٣)؛ فإن كل هذا يُقلق بالنا جداً من جهة مصيرنا المحتوم:

- فهل نحن نعيش حسب الجسد، أي حسب إرادته ومطالبه، ونتحيَّز لذواتنا وشهواتنا حتى تُصبح أهواؤنا الخاصة ومزاجنا هما المسيطران على سلوكنا؟
- أو بمعنى آخر، نهتم فيما لأجسادنا وأنفسنا إلى [illegible] يصبح فيها لوصية الله السلطان الكامل [illegible]

هذا يعني مباشرة أن ناموس الخطية يسكن ويعمل برضانا وبلا مانع في قلبنا وفكرنا وأعضائنا، ويسيطر على ميولنا؛ فتنجرف نحو الاتجاهات السلبية الخاطئة والآمال الدنيوية والراحات والكرامات والأمجاد. وبالتالي يصبح مجال أفكارنا مرتعاً لهموم العالم ولكل تصوُّرات شريرة وغير صالحة ولا طاهرة، حيث ينقاد الجسد حتماً بسلطان الغرائز، وتدخل النفس في قبضة الشيطان لتصير عبداً للغضب والحقد والعداوة والحسد والكبرياء والعظمة، تجاهد النفس لتخرج من واحدة فتدخل في الأخرى.

وقد يتبادر إلى الذهن في بادئ الأمر أن الله حتماً سيَرُدُّ على ذلك بأن يُسرع في النقمة والتأديب، ولكن تمر الأيام والسنين ولا يحدث ما كنَّا نخشاه. وبسبب عدم حدوث ذلك في حياتنا، نظن خطأً أن الله ساكت أو متواطئ أو على الأقل غير غاضب علينا، ولكن هذا وَهْمٌ وخداع يلف حياتنا ليوردها إلى الهلاك. ففي الحقيقة لو عُدنا إلى معاملات الله مع شعب إسرائيل لاكتشفنا أسلوب الله الخطر في هذا الأمر.

فالرب حذَّر، وأنذر، ثم ترك شعب إسرائيل ليختار لنفسه ما يشتهي؛ فاشتهى الحياة حسب الجسد بكل شهواته وأهوائه. ثم عاد الله من حين لحين ليُذكِّر الشعب على يد أنبيائه، مُعلناً قراره في هدوء أنه شعب عنيد غليظ الرقبة، لم يستَفِد من طول أناة الرب، لذلك لن يُبرِّئه على مخالفاته واستهتاره، لكن العجيب في طول أناة الله أنه ــ وبالرغم من كل ذلك ــ لم يُقرِّر في نفسه أن يُفارقه؛ بل ظل يرافقه ويحميه

بالنهار وبالليل، لأن في الحقيقة عدم أمانة الإنسان أو الشعب لا تستطيع أن تُبطل أمانة الله. فالله صالح، وسيظل كذلك، ولكن في هذا الصلاح أيضاً يكمن خطر التأديب، إذ نجد أنه بالرغم من هذا الترفُّق، إلاَّ أن الله جعل ثمن ترفُّقه وطول أناته، هو إطالة مُرَّة وقاسية أيضاً لمسيرة الشعب في براري سيناء الموحشة مدة **أربعين سنة**، مع أن الرحلة كانت لا تحتاج لأكثر من أربعين يوماً على أقصى تقدير. وهكذا نعود لأنفسنا لنسأل عن النتيجة الحتمية التي سنواجهها إنْ نحن قسَّينا قلبنا وانحزنا وراء شهوات الجسد ومطالبه، مع التذمُّر والشكوى والحنين إلى الراحة والعودة إلى الماضي؛ هل نريد أن تطول رحلتنا عبثاً؟

لقد أطال الله تيه شعب إسرائيل ومرَّر حياته في البرية أربعين سنة بسبب شكواه من الله، وتذمُّره على حياته اليومية، وحنينه للأكل اللذيذ والشرب المريح (خر ١٦:٣)، و لم يكن هذا عجزاً من الله؛ فالله كان قادراً أن يخلق لنفسه شعباً بأكمله أكثر طاعة وأكثر أدباً، إذ قال مرَّة لموسى: «اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، **فأُصيِّرك شعباً عظيماً**...» (خر ٣٢:١٠)

ـ إذن، علينا أن ننتبه جداً أن عقاب الله يختبئ دائماً في إطالة التعب والضيق، إنْ نحن انحزنا إلى مسرَّاتنا دون الله. وقانون الآباء الروحي هو أن التجربة تتضاعف على المتذمِّرين، فليس طول التيه هو قانون للسفر، وخاصة إن كان على الطريق الضيق وتحت حماية الله وقيادته. فالسَّفَر الروحي السعيد الموفَّق ليس فيه أوقات تضيع في التعطيل أو تُنفَق في الباطل.

إذن، فلنتنبه جداً، فالتيه في الطريق علامة أكيدة على خطأ في المسير وغضبةٍ مكتومةٍ في قلب الله، تحمل خطورة شنيعة لإمكانية حلول نهاية مُحزنة. فمعلوم أن الله أفصح عن غضبه هذا في النهاية عندما أهلك بالفعل ثلاث ملايين نسمة، وهو مجموع العدد الخارج من مصر، و لم يَنْجُ منهم إلاَّ اثنان فقط!! يشوع بن نون، وكالب بن يفُنَّة.

إذن، ليحذر القارئ أو السامع! يستحيل أيها الأحباء أن نستمر في التيه بلا مبالاة وننتظر أن نصل إلى أرض الميعاد بسلام. فالأمل في ذلك يكون بنسبة شخصين في كل ٣ مليون نسمة، أي شخص واحد لكل مليون ونصف نسمة!! حيث هاتان الحالتان، أي يشوع وكالب، تُمثّلان فعلاً أمانة تخطّت أتعاب المنظور وكل أسباب الضيق ودعوى التذمُّر.

ثم ينبِّهنا الرسول بطريق غير مباشر قائلاً: لا تقولوا في أنفسكم إننا اعتمدنا، فشعب إسرائيل اعتمد في البحر الأحمر. ولا تقولوا إننا تثبَّتنا كأعضاء في الجسد بالميرون، فشعب إسرائيل اختتن وافتخروا أنهم أولاد إبراهيم، الشعب المختار، وعبدوا الله، وصاروا أعضاء كجماعة متحدة تتراءى أمام الله وفي حضرته في الخيمة. ولا تقولوا إننا نأكل جسد الرب ونشرب دمه، فشعب إسرائيل أكل المنَّ السمائي الذي تسمَّى بخبز الملائكة أربعين سنة بلا انقطاع، وشرب من الصخرة التي قيل عنها صراحة إنها كانت المسيح. وبالرغم من ذلك كله طُرحت جثثهم في القفر مغضوباً عليهم؛ لأنهم استصعبوا المسير وراء الرب بالضيق، وكرهوا خبز الكِسَر، وعبدوا الرب بالشفاه، أما قلوبهم

فكانت مبتعدة عنه (راجع مت ١٥:٨)، وعملوا ما اشتهته قلوبهم فأغاظوا العليّ وتذمَّروا عليه ليل نهار (١كو ١٠، مز ١٠٦).

هذا كله يكشفه لنا الكتاب بمنتهى الدقة والوضوح، ويكشف عن مدى الخطورة المحدقة بإنسان أو شعب يعطي الله القفا دون الوجه.

- فالكتاب يؤكِّد أن هناك حياتين وعبادتين: **حياة وعبادة حسب الجسد، وحياة وعبادة حسب الروح.** الأولى **للموت المحقَّق**، والثانية **للحياة بوعد**. والعبادتان متشابهتان تماماً في الشكل والطقس والواجبات والأعمال، ولكن لا يفرقهما إلاَّ القلب، أي الداخل المكشوف فقط لله بعمل الروح.
- فإما عبادة مخادعة لحساب الجسد، وإما عبادة بالروح صادقة وأمينة لله، ولا يمكن الجمع بينهما.

ومعروفٌ ومتيقَّنٌ تماماً أن أية حياة مسيحية لا تكون صادقة وأمينة للروح القدس لا يكون المسيح حيًّا أو فعَّالاً فيها: «إن كان أحدٌ ليس له روح المسيح، فذلك (أي المسيح) ليس له.» (رو ٨:٩)

أما الحياة في المسيح بالروح القدس فلها شهادة، ولها قوة، ولها ثمار لا تُخفَى ولا تُعانَد. لذلك، وعلى هذا الأساس، يُشجِّعنا القديس بولس الرسول: «**اسلكوا بالروح فلا تُكمِّلوا شهوة الجسد.**» (غل ٥:١٦)

والآن ماذا نصنع، أيها الإخوة، ونحن في موسم مقدَّس يدعو ليقظة الروح؟ لِنَعِشْ بالروح وليس بالجسد، لنحيا بروح المسيح في خوف الله في قناعة الضمير وشُكر النفس وفرح الروح، ضابطين الجسد في كل

شيء: «ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ١٣:٨)؛ حتى نُثمر ثمار البر والقداسة، ونتغيَّر عن شكلنا بتجديد أذهاننا، ولا نجعل تدبير الجسد ومكاسبه هي كل ثمارنا التي هي من التراب وإلى التراب سوف تعود.

يوجد موتٌ للهلاك، ويوجد موتٌ للحياة:

كان لابد أن يموت الشعب الخارج من مصر لأنه عاند واستهان بالمواعيد، هذا هو قانون الروح والخلود، أن يَفنى كل مَن استهان بالقدوس وازدرَى بوعود الله وبدعوة العبور، ممسوكاً من شهوة قدور اللحم ومسرَّات الجسد وعبودية الراحة، وهذا هو الهلاك الأبدي!!!

أما دعوة الروح الجديدة التي يُقدِّمها لنا المسيح على مستوى آلامه وصليبه فهي: أن نموت بالروح عن كل شهوات الجسد وأعماله، وذلك بإرادتنا نحن، ضابطين كل أهوائه وشهواته وأعضائه العاملة فينا للعصيان والتمرُّد وإغضاب الله، لكي تتشكَّل فينا صورة المسيح الذي يتحتَّم أن نكون مثله، لننال فيه ومعه وعد الحياة. هذا هو الموت الإرادي أو الإماتة بالروح التي ينبغي أن نموتها كل يوم، لأن هذا الموت هو هو الحياة عينها التي تحوي الفرح الأبدي والسلام الذي لا يُنزع منَّا: «كُنْ أميناً إلى الموت، فسأُعطيك إكليل الحياة» (رؤ ٢:١٠). الجهاد اليوم موضوع أمامنا، والإنجيل يدفعنا دفعاً لسلوك هذا الطريق السرِّي: «لم تُقاوموا بعد **حتى الدم** مجاهدين ضد الخطية.» (عب ١٢:٤)

وفي هذا الصدد نقرأ معاً فصلاً ممتعاً من الرسالة إلى العبرانيين:

+ «لذلك كما يقول الروح القدس: **اليومَ إنْ سمعتم صوته فلا**

تُقسُّوا قلوبكم، كما في الإسخاط، يوم التجربة في القفر، حيث جرَّبني آباؤكم. اختبروني وأبصروا أعمالي أربعين سنة. لذلك مَقَتُّ ذلك الجيل، وقلتُ إنهم دائماً يضلُّون في قلوبهم، ولكنهم لم يعرفوا سُبُلي. **حتى أقسمتُ في غضبي: لن يدخلوا راحتي**. انظروا أيها الإخوة أن لا يكون في أحدكم **قلبٌ شرير بعدم إيمان في الارتداد عن الله الحيّ**. بل عِظُوا أنفسكم كل يوم، ما دام الوقت يُدعى اليوم، لكي لا يُقسَّى أحدٌ منكم بغرور الخطية. لأننا قد صرنا شركاء المسيح، إنْ تمسَّكنا ببداءة الثقة ثابتة إلى النهاية، إذ قيل: اليومَ **إن سمعتم صوته فلا تُقسُّوا قلوبكم**، كما في الإسخاط. فمَن هم الذين إذ سمعوا أسخطوا؟ أليس جميع الذين خرجوا من مصر بواسطة موسى؟ ومَن مَقَتَ أربعين سنة؟ أليس الذين أخطأوا، الذين جثثهم سقطت في القفر؟ ولِمَن أقسم لن يدخلوا راحته، إلاَّ للذين لم يطيعوا؟ فنرى **أنهم لم يقدروا أن يدخلوا لعدم الإيمان. فلْنَخَفْ، أنه مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته، يُرَى أحدٌ منكم أنه قد خاب منه!**» (عب ٣:٧–١٩؛ ٤:١)

لاحِظوا هنا أن الكلمات تحذيرية وخطيرة جداً، فإذا استهنَّا بها أو قلَّلنا من قوتها وخطورتها، فإنها تُنشئ حالة عداوة تجاه المسيح؛ بل حالة غضب إلهي لا يمكن فكُّها أو التخلُّص منها.

يقول بولس الرسول مردِّداً صوت الروح القدس: «يقول الروح القدس: **اليومَ** إن سمعتم صوته (أي صوت الروح القدس في القلب)

فلا تقسُّوا قلوبكم». أليس هذا اليوم هو هو كل يوم ما دام الوقت يُدعى وقتاً؟ وهنا يُعطي المَثَل: «كما في الإسخاط، يوم التجربة في القفر، حيث جرَّبني آباؤكم». ويُلاحَظ هنا أن الرب يضع الشعب المُعاند موضع مَن يُجرِّب الرب عمداً، حيث يقول الروح إن علَّة القساوة التي أصابتهم كانت بسبب أنهم **استهانوا** بقيادة الله ووعوده، وانصبَّت هذه الاستهانة حول ملذَّات الخطية وشهوات البطن وراحة الجسد التي أنشأت قساوة ضد الله نفسه!!

- والآن، ماذا كان ثمن هذه الاستهانة بالله والانحياز إلى شهوات الجسد والنفس؟ النتيجة كانت مشئومة حقًّا إذ يقول الكتاب: «لذلك **مَقَتُّ** ذلك الجيل... **يضلُّون في قلوبهم (بإرادتهم)... لم يعرفوا سُبُلي... حتى أقسمتُ في غضبي لن يدخلوا راحتي.**» (عب ٣: ١٠و١١)

وهكذا نجد أنه قد تسجَّل لنا هذا المسلسل المشئوم حقًّا لتحذيرنا. فشهوة الخطية واللذة والراحة ولَّدَتْ استهانة بتحذيرات الله عامة، والاستهانة ولَّدَتْ قساوة، والقساوة ولَّدَتْ ضلالة وعدم معرفة، والختام كان غضب الله والحرمان من الراحة الأبدية.

وحالة إسرائيل لم تُكتب للتاريخ فحسب؛ بل يقول بولس الرسول مؤكِّداً إنها «**كُتِبَتْ لإنذارنا**» (١كو ١٠: ١١)، «**فلْنَخَفْ نحن**» (عب ٤: ١)، «**مُلاحظين لئلا يخيب أحدٌ من نعمة الله.**» (عب ١٢: ١٥)

لأن نتيجة الاستهانة بالله هي حتماً وفي كل جيل وعلى أي حال

تنتهي **بتملُّك** الخطية!! وثمن الخطية موت.

عدم الإيمان ينتهي بالارتداد عن الله الحيّ:

وهذا يشرحه الروح القدس أنه بسبب **سُكنى الخطية في القلب**؛ علماً بأن قبول الشر في القلب **يُفقِد الإنسان الإيمان والثقة بمواعيد الله**. لأن القلب حينما يتقسَّى ينصدُّ عن الروحيات عموماً. والنتيجة أن القلب يزداد كل يوم قساوة أكثر بسبب انجذابه لغرور (خداع) الخطية أكثر فأكثر. **فعملية تقسية القلب**، تزداد بالتمادي في الخطية، وتنتهي بالارتداد عن الله الحيّ.

«فنرى أنهم لم يقدروا أن يدخلوا **لعدم الإيمان**». فالدخول إلى أرض الميعاد كان يحتاج إلى الثقة في مواعيد الله السابقة والتمسُّك بالإيمان مهما كانت الأمور صعبة ومستحيلة، وهذا ينطبق تماماً على دخولنا نحن الملكوت.

يا أحبائي، إن أعظم خطية تنجح في تخريبها للنفس تماماً هي خطية عدم الإيمان بمواعيد الله!! وهي التي تولِّد الاستهانة بتحذيرات الله.

فالصمم الروحي الذي أصاب هذا الجيل والانصداد عن سماع كلمة الإنجيل والخوف من الوصية قد ولَّدوا استهتاراً. والاستهتار هو المجال الذي تنشط فيه كافة أنواع الخطايا. والخطية تولِّد قساوة في القلب. والقساوة تهزأ بالإيمان وكل مفاهيم الروح ومواعيد الله. لذلك فعدم الإيمان هو هو عداوة لله، المُعبَّر عنه بالارتداد عن الله الحيّ: «وإن ارتدَّ لا تُسرُّ به نفسي.» (عب ١٠: ٣٨)

أَكل اللعب:

يعود بولس الرسول يُذكِّرنا في موسم الصوم هذا بخطية يسقط فيها كثير من الأفراد والجماعات وحتى بعض الأشخاص المعتبرين:

+ «فلا تكونوا عَبَدَة أوثان كما كان أُناس منهم، كما هو مكتوب: جلس الشعب **للأكل والشرب**، ثم قاموا للَّعِب (كلمة "اللعب" هنا حسب الترجمة العبرية تفيد **المداعبة بالأمور الجنسية والهزار القبيح**). ولا نزنِ كما زنى أُناس منهم، فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً.» (١كو ١٠:٧و٨)

نلاحظ هنا أن الروح القدس يُصوِّب السهم نحو ما يحدث في وسطنا وعلى موائدنا وبلا حياء، لأكل اللذَّة والمسرَّة والضحك والمزاح، جلوس لملء القلب بكلمات الهزل والقباحة بإحساس إشباع غرائز مسيبة خفيَّة. فليس هذا جلوس أكل، ولا هذا أكل شبع؛ بل هو الذي يقول عنه بستان الرهبان: "لم آكل خبز الشهوة".

كل جلوس للأكل بقصد مثل هذا، هو بخور مُقدَّم للشيطان، هو عبادة أوثان كما يقول الإنجيل، وهو حتماً يحمل رائحة الزنا. هنا التحذير الحزين للروح القدس الذي جاء على فم بولس الرسول لأهل كورنثوس: «لكن بأكثرهم لم يُسَرَّ الله، **لأنهم طُرحوا في القفر. وهذه الأمور حدثت مثالاً لنا، حتى لا نكون نحن مُشتهين شروراً كما اشتهى أولئك.**» (١كو ١٠:٥و٦)

يا أحبائي، الأكل في التقليد الآبائي جزءٌ أساسي في العبادة، فهو إما بالشكر والصلاة لتمجيد الله ويكون الله حاضراً بالفعل؛ وإما

بالشهوة واللذَّة والهزار لإرضاء الشيطان.

هذا هو أكل اللعب! جلس الشعب للأكل والشرب وقاموا للَّعب، والنتيجة زنا؛ فسقط ثلاثة وعشرون ألف قتيل.

لا نُجرِّب المسيح:

في سفر العدد (٢١:٤و٥) يقول: «فضاقت نفس الشعب في الطريق. وتكلَّم الشعب على الله وعلى موسى قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية، لأنه **لا خبز ولا ماء، وقد كرهتْ أنفسنا الطعام السخيف**...». لقد سَمَّى الشعب الخبزَ الجاف واللونَ الواحد من الطعام بكلمة "**سخيف**"، حيث لم يَعُدْ خبزاً طرياً لذيذاً مثل الخارج من أفران مصر، ولا الماء عذب كنيل مصر. خطية الشعب هنا التي يُركِّز عليها الكتاب هي النظرة للوراء إلى أيام الراحة والقوة والغِنَى والشباب. وهيهات، فكل الجري وراء ما فات سرابٌ في سراب، والنظرة إلى الوراء تنتهي بنا حتماً إلى الانحصار والتذمُّر واللعنة!! ما أجملكِ، يا سدوم، عند الجُهَّال! وما أعظمكِ، يا عمورة، عند الأغبياء! **هذه هي تجربتنا للمسيح عندما نقيس أنفسنا على غيرنا أو على ماضينا وأيام راحتنا فنتذمَّر** قائلين: "ضاقت نفسي" من المشقة، "كرهت نفسي" الصوم، مالي وهذا الطعام السخيف.

لاحِظوا، يا أحبائي، أن المسيح نفسه يُكنى عنه بـ"**الطريق**". والعجيب أن الطريق إلى السماء هو ضيق حتماً بسبب حتمية الصليب: فلا يوجد إيمان بالمسيح بلا صليب، وليس صليب بلا آلام وظلام، والفرح بالمسيح هو بعينه الفرح بالصليب حينما يُحمَل بشجاعة ويُحمَل

جيداً وبافتخار؛ وإلاَّ يكون الفرح كاذباً، كفرح الأكل واللعب!!

كذلك فإنَّ المسيح يُكنى عنه أيضاً بالخبز أي **الطعام**، والعجيب أنه بعينه **الطعام الممزوج بالمرارة** الذي كان يؤكل قديماً على أعشاب مُرَّة!! ولم تَزَل صورة المرارة الحزينة ممزوجة به لا تُفارقه سواء على الصليب أو على المذبح. فالجسد يؤكل "**مكسوراً**"، والدم يُشرب "**مسفوكاً**"، تعبيراً عن قمة الألم والتعذيب وبلوغ الظلم حتى الدم!!

إذن، فنحن في خطر من أن نقع في نفس خطيئة شعب إسرائيل، أي تجربة المسيح، إذا استثقلنا الإيمان بالإله المصلوب!! أو تنكَّرنا للمسير وراءه حتى الجلجثة في موكب الاحتقار والمهانة والرذل، أو عافت أنفسنا الضيق والتعب أو الاضطهاد، من أجل اسمه، أو حَمْل نير الصوم الذي يحمل في طياته إنكار ملذَّات الجسد.

يا أحبائي، يلزمنا أن ننتبه إلى شدة التشابه بيننا وبين حالة شعب إسرائيل السائر في التيه وراء موسى في أراضٍ مقفرة مُرعبة قاحلة، لا راحة فيها، لا خضرة ولا جمال ولا سلامٍ ولا أمان ولا طعام ولا شراب لذيذ؛ الأمر الذي كان ـ إلى حدٍّ ما في تصوُّرنا ـ **يُجيز لهم التذمُّر**، فلم يُجِزه لهم الله!! فكم بالحري نحن الذين أُعطِيَ لنا أن نسير وراء المسيح في برية هذا العالم بقوة الروح وبتعزيات النعمة وأسرار لا تُحدُّ، حتى ولو كنَّا مُحاطين بنفس الضيقات والآلام والحرمان. فقياساً على نفس التجربة لا يمكن أن ننجو إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره، واستثقلنا مسيرة الصليب، ورفعنا قلوبنا وعيوننا نحو الراحات والمسرَّات والمجد الدنيوي والمراكز العُليا والمدن الجميلة!! وعافت

أنفسنا الضيق والصوم أو التعب، وتوهَّمنا أنه بعد ذلك يمكننا أن نبلغ الملكوت المعدّ والراحة العُليا.

لهذا لا ينبغي التفريق بين النهاية المُحزنة التي بلغها الشعب المتذمِّر السائر وراء الله في البرية، وبين الذين يسيرون وراء المسيح الآن وهم حاملون قلوباً متذمِّرة طالبين العيش الرغد، رافضين ضريبة الملكوت الحتمية التي وُضعت علينا «**أنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله**» (أع ١٤: ٢٢)، «**وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون.**» (٢تي ٣: ١٢)

ولكن فلنحذر، لأنه كما أرسل الله الحيَّات المُحرقة (أي المميتة) تأديباً لإسرائيل جزاء كل مَن تذمَّر على الرب مستثقلاً **المسير** في الطريق وعاف ـ حسب قولهم ـ **طعام السَّفَر "السخيف"**؛ هكذا يقف الشيطان رمز الحيَّة نفسها المُحرقة والمميتة يبتلع الرافضين السير في موكب الصليب بالصبر والاحتمال والفرح. أما الذين عافت نفوسهم خبز الضيق، فكيف يؤهَّلون لخبز الحياة؟

«**ولا تتذمَّروا كما تذمَّر أيضاً أُناس منهم، فأهلكهم المُهلك**» (١كو ١٠: ١٠):

كان تذمُّر شعب إسرائيل نوعاً من الخداع، فقد أغواه جواسيس الأرض الذين جاءوا وأخبروهم أخباراً ليست من الإيمان في شيء. إذ قالوا للشعب إن أرض كنعان التي أنتم ذاهبون إليها تأكل سكَّانها!! وإننا بالنسبة لهم كالجراد وهم عمالقة، "فأشاعوا المذمَّة على الأرض". وهكذا خوَّفوا الشعب وأرعبوهم، فبكى الشعب تلك الليلة

وتذمَّروا على موسى وعلى هارون قائلين: «ليتنا مُتنا في أرض مصر... ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة... فقال بعضهم لبعض: نُقيم رئيساً ونرجع إلى مصر.» (سِفْر العدد ــ الأصحاحان ١٣و١٤)

وهكذا حسب الله للشعب نية الرجوع من ورائه أنها خيانة وتذمُّر، وحُسِبت أخبار الجواسيس الذين أُرسلوا ليتجسَّسوا الأرض الذاهبين إليها أنها إشاعة.

والعجيب أنه لَمَّا وقف يشوع بن نون وكالب بن يَفُنَّة ــ وهما كانا ضمن المبشِّرين بأخبار أرض الميعاد ــ ليُشجِّعوا الشعب ويطمئنوه أن الرب معنا، قالوا: «إن سُرَّ بنا الرب يُدخِلنا إلى هذه الأرض... لا تتمرَّدوا على الرب ولا تخافوا»؛ فكان ردُّ الفعلِ المحزن أنْ هَمَّ الشعب ليرجم يشوع وكالب لولا تدخل الرب السريع، إذ «ظهر مجد الرب في خيمة الاجتماع لكل بني إسرائيل. وقال الرب لموسى: حتى متى **يهينني** هذا الشعب، وحتى متى **لا يُصدِّقونني** بجميع الآيات التي عملتُ في وسطهم».

لاحِظوا هنا أن عدم تصديق الرب فيما سبق وعُمِلَ مع آبائهم، يُحسَب شهادة ضدهم إذا هم لم يأخذوا بها ويعتمدوا عليها ويثقوا فيها ويسيروا بمقتضاها بلا خوف أو انزعاج. ولكن انفلات الشعب وراء المرجفين والمزعجين أنزل سخط الله على الشعب كله!! «**هذه الجماعة الشريرة المتذمِّرة عليَّ... هذه الجماعة الشريرة المتَّفقة عليَّ.**» (عدد ١٤:٢٧و٣٥)

وكان العقاب سنةً تيهاً في القفر مقابل كل يوم تذمُّر (عدد ١٤:٣٣و٣٤). «**فتعرفون ابتعادي**»، لأنه كانت مدة التيه فعلاً أربعين سنة!!! وكانت فترة التجسُّس، أي اختبار وعد الرب في أرض الخيرات أربعين يوماً التي لا يزال يُمثِّلها الصوم الكبير الذي فيه نذهب فنتجول بأرواحنا فيما أعدّ لنا الله من ميراث ومُلْك، ونتحسَّس فيه صدق وعود الرب.

أما كل الذين أنكروا صدق مواعيد الله وأشاعوا المذمَّة بين الشعب، فماتوا بالوبأ أمام الرب في الحال (عدد ١٤:٣٧).

واضحٌ من قول بولس الرسول إن هذه الأمور حدثت مثالاً لنا حتى لا نتذمَّر كما تذمَّر أولئك أيضاً!! بسبب ضيق الأيام أو شدة التجارب. والتذمُّر على الله، كما يتضح من أقوال الكتاب، لا علاج له ولا شفاء منه. «الذين رأوا مجدي وآياتي... وجرَّبوني... ولم يسمعوا لقولي... حيٌّ أنا... لن يروا الأرض التي حلفت لآبائهم. وجميع الذين أهانوني لا يرونها.» (عدد ١٤:٢٢و٢٨و٢٣)

فالرب الذي افتتح السموات بصليبه ودخل كسابق من أجلنا وعليه جروحه، هو نفسه الضامن لوصولنا مهما بَدَت الرحلة شاقة وامتدَّت بنا أيام الغربة وطالت في أرض الشقاء، وما ألذ اللقمة اليابسة أثناء رحلة طويلة. وإذا كنتَ مضروباً بداء افتخار المعيشة أو بالشهوة أو بالزنا، فخُذْ لك لقمة مِن على مائدة الصوَّامين.

- قد تكون التوبة الفردية عملاً شخصياً يتوقف على رغبة الإنسان ومزاجه واستعداده ومثابرته، ولكن التوبة الجماعية فرض والتزام على الكنيسة بالنسبة للوطن والعالم. الكنيسة، كجماعة، مسئولة مسئولية مباشرة عن الوطن وعن العالم. الكنيسة موضوعة في العالم لتفتديه... الحاجة في هذه الأيام إلى صوم جماعي وتوبة جماعية لتنجو مصر ولينجو العالم مما ينتظره!
- ماذا نصنع، أيها الإخوة، ونحن في موسم مقدَّس يدعو ليقظة الروح؟ لنَعِشْ بالروح وليس بالجسد، لنحيا بروح المسيح في خوف الله في قناعة الضمير وشُكر النفس وفرح الروح، ضابطين الجسد في كل شيء: «ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨:١٣)؛ حتى نُثمر ثمار البر والقداسة، ونتغيَّر عن شكلنا بتجديد أذهاننا، ولا نجعل تدبير الجسد ومكاسبه هي كل ثمارنا التي هي من التراب وإلى التراب سوف تعود.